سلسلة قضايا التهميش

هامش العروبة في السودان
(تهميش الهوية)

- الكاتب : محمد عبدالكريم عيسي

- التدقيق اللغوية : نون الجاك

الفهرس :

❖ إهداء :

إلى تلك الطاهرة النقية فاطمة بنت محمد أسأل الله أن يحفظكِ ويطول بعمركِ.

إلى أبي وإلى أخي عيسي وإلى كل أخواتي، إلى أهلي واحبابي ، إلى أصدقائي وإلى كل من جمعتني بهم الأيام أهدي هذا الكتاب المحترم إليكم.

قال الله تعالى في محكم تنزيله:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ) الروم – الآية 22

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ) هود – 118

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

حجرات - 113

❖ المقدمة :

عزيزي القارئ في هذا الكتاب سوف أتطرق لمواضيع كثيرة والغرض الأساسي من هذا الكتاب هو جدل الهوية والأزمة الحقيقية التي تواجه المواطن السوداني وربما هذا الجدل لم يكتمل ما لم نحسم هذا الأزمة بصورة جدية و قاطعة.

إذا سئلت أحدهم من الشمال "هل السودان دولة عربية أم أفريقية؟ فسيقول لك السودان دولة عربية لقد شمل كل أطياف المجتمع الجغرافي وهذا بحد ذاته أزمة جغرافية وبنفس النهج إذا سألت أحدهم من الغرب فستكون الإجابة مختلفة ولكنه سيشمل كل أطياف المجتمع في إطار مفهومه عن ماهية الجغرافيا؛ في

الغرب سيقولون لك السودان دولة أفريقية وفي الشمال يقولون السودان دولة عربية**!!**

إذا قلت السودان دولة غير عربية أو العكس أمام إثنية معينة سوا كانت من الغرب أو الشمال لا محال سوف تصنف اما لاجئ أو لديك عقدة عروبة ولا أستبعد أي خيار لأن جذور الأزمة تكمن هنا.

أزمة الهوية ليست من أمس أو اليوم وإنما أزمة زرعت في نفوس السودانيين حتى انبتت جيل من جيل، من عهد الحكم التركي المصري ثم المهدي مرورًا بعهد التعايشي مرورًا بحقبة الإنجليز، ثم إنتقال الجدل إلى ما بعد الإستعمار بكل الحكومات التي حكمت السودان، على مر العصور كان المواطن يعاني من تهميش في

الهوية سوا كان هذا قصد الحكومة أو قصد من نخب معينة في تهميش الهوية السودانية بكل أطيافها الإجتماعية و الدينية والفكرية.

إذا رجعنا للتاريخ نجد الهجرات العربية من شبة جزيرة العربية إلى شمال السودان في أرض النوبة، من هناك تغلغل بعض الوافدين العرب إلى الأراضي السودانية، كانت العلاقة ازدهرت عبر تجارة الصمغ والعاج والبخور والذهب بين السودان والحبشة وبين مواني الجزيرة العربية هكذا استوطن العرب و تمازجوا مع النوبة وباقي القبائل وقتذاك.

وكان بين السودان وشبه الجزيرة العربية و الشواطئ العربية و الإفريقيـة صلات قديمة عبر البحرالأحمر.

حيث إزدهرت تجارة الصمغ والعاج والبخور والذهب بين الجزيرة العربية من ناحية وبين موانئ مصر والسودان والحبشة من ناحية أُخرى . وقد إتخذ العرب مراكز لهم علي الشاطئ الأفريقي ونزحوا منها إلي قلب أفريقيا حتى وادى النيل. ومنذ 2000 سنة ق.م. هاجرت قبائل عربية من جنوب الجزيرة العربية إلي الحبشة ، وعبر عدد كبير من اليمنيين مضيق باب المندب وإستقر بعضهم في الحبشة ، وتحرك البعض الأخر مع النيل الأزرق ونهر عطبرة ووصلوا بلاد النوبة . ويحدثنا "إبن خلدون " عن حملات عسكرية قام بها بنو حمير من اليمن ، في وادى النيل الأوسط

وشمال أفريقيا . وإستقر بعضهم في بلاد النوبة وأرض البجـة وشمال أفريقيـا .

وكان للسودان علاقات مع ليبيا والحيشة منذ العصور القديمة ، وفي الأثار السودانية نجد إتصال مملكة مروي بالحضارة الهندية.

❖ مفهوم[1] التهميش :

التهميش لغة : هو مصدر الفعل هَمَشَ، و

تهامش القوم اختلط بعضهم ببعض و تحرضوا،

و فلان يعيش على الهامش لا يشارَِك (بفتح و

كسر الراء) في أمور العامة والهامش هو حاشية الكتاب. المصدر {المصباح المنير}

ويستخدم التهميش كمصطلح إجتماعي يعني العزل والإقصاء أو الإبعاد عن أداء أي دور محوري في المجتمع وفي بعض الأحيان هناك إبادة.

هذا المصطلح في الإنجليزية تسمى (Marginalization) وتعني :

وضع الأشخاص أو الشعوب على هامش الأحداث والأفعال ونعني مصطلح (socilexclusion) : الإقصاء أو الاستثناء وعدم شمول أو عدم الإدماج في كيان القوي

بكل تدافعاته ، وكذلك مصطلحات الاستثناء أو العزل كلها تعني إغتراب أو تغريب بعض الناس أو جماعات أو كيانات داخل المجتمع و عزلهم من كل النشاطات الإجتماعية والثقافية والفكرية.

وهذه الحالة مرتبطة أحيانا بالطبقة (class) أو بالوضع التعليمي أو مستوى الحياة، ينطبق ذات الأمر (العزلة) على مجموعات أقلية (إثنية ، دينية ، إقليمية أو جغرافية) أو على حسب صنف المجتمع، وبالتالي فإن أي فرد يجد نفسه في وضع مختلف أو منحرف نوعيًا لا كميًا عن

الوضع العام للمجتمع فإنه يعتبر في حالة استثناء أو تهميش أو إقصاء إجتماعي.

❖ التهميش الفكري :

بعض المثقفاتية والمفكرين يواجهون التهميش بسبب معارضة أفكارهم المتطرفة أو المثيرة للجدل في كل الشؤون الإجتماعية والعامة.

❖ تهميش التاريخ :

من عوامل تهميش الهوية أو أقصد ظاهرة

إستغراب التاريخ له دور كبير في تهميش الهوية

السودانية لابد من أن نسبر الغور ونتعرف على الجذور التاريخية و أسبابها و حلولها لأهميتها عند كل فرد في المجتمع ، لأنه إذا أسدل الستار عن هذا التهميش يعني أن السودان يندلف عن طريق الوعي الديمقراطي والتنمية الإجتماعية.

❖ التهميش الطبقي :

هو الاضطهاد و التمييز الطبقي والجنسي والديني والاثني حتى في اللون والعرق.

التهميش كمفهوم سياسي إجتماعي علينا أن نفهمه جيدًا ونتعرف على أسبابه و كيفية معالجته حتى نتمكن من تطور ايدلوجية المجتمع الطبقي في السودان، و أن نتمحور في بناء

أجيالًا و ترك آثار تذكرهم بنا، وحتى لا نعود إلى المربع الأول لممارسة الماضي، إذا لم يتوفر للمجتمع كل العوامل والظروف التى تمكنهم من الإدراك والفهم و المعرفة الواضحة و المشاركة الفعالة و لم تتوفر السبل لها فهم مهمشون ولا يغير في شأنهم شيئاً إذا كان هذا التهميش بإختيارهم أو فرض عليهم.

هذه بعض مفاهيم التهميش ولكن أظنني ما زلت أطفو فوق السطح ولم أسبح نحو القاع، ما أقصد تناوله هنا هو الهامش الجنسي بمعنى تهميش الهوية، وهذا المصطلح يدخلنا إلى أصل

الأزمة، فكلنا نعلمِ – نحن كسودانيين لسنا جميعنا عرب ولسنا جميعنا أفارقة، لدينا ٥٧٠ قبيلة في السودان تنقسم إلى ٥٧ مجموعة عرقية على أساس الخصائص الاثنوغرافية والثقافية و نتحدث ١١٤ لغة مكتوبة و منطوقة.

الإشكالية ليست في اللغة أو القبيلة وإنما في أنفسنا كسودانيين لا نتقبل بعضنا البعض، ومن هنا نجد بعد انفصال الجنوب كادت أن تندلع حرب أو حرب عِرقية بين الشمال والغرب وما زال هناك نزاع بين الجغرافيتين.

لا نحمل الأوزار على الشماليين ولا الغربيين وإنما إلى أصحاب الفتن الذين لا يريدون خيرًا

للسودان، ولكن ابشركم بأن هذا الشعب لن يفرقه

شيئًا هيهات هيهات.

❖ وهم العروبة

إنه اللفظ الذي يدور حول حداثة عهد العروبة

في السودان لا مبرر له علميًا،

العروبة ليست لسان وكل من يمني نفسه

بالعروبة فإنه موهوم أو كما أسميها أنا (هامش

العروبة)

كلنا نعلم بأن العرب ليسوا من سكان السودان الأزلين وإنما دخلوا عن طريق التجارة وغيرها، حملوا إلينا ثقافتهم من الشام واليمن وبلاد الحجاز آنذاك، ثم تمازجوا مع النوبة في الشمال في الفترة المسيحية و التي حل مكانها الإسلام.

في العالم الحديث ليس هناك شعوب تنصب نفسها في هويات أخرى وهذه القضايا صرفت الأمم الواعية النظر عنها و اتجهت لما هو مفيد؛ مثل فرنسا أكثر من نصف سكانها من زيجات مختلفة والدين الإسلامي هو الديانة الثانية، و الولايات المتحدة كلها خليط، لم تتحدث فئة منها

عن الأجنبية ولم ينادي الهنود الحمر بطرد

غيرهم من سكانها.

العالم قد تغير لانه غير تلك المفاهيم القديمة

(العصر الحجري) وهناك أمم صرفت النظر

عن مسألة الهوية، القناعة تحسم جدل الهوية.

لا أحد ينكر أصل أسلاف أحدهم، كما لا توجد

بينة لأي نوع من الأسلاف، لا لفرض الهوية

والكل لديه الحرية الكاملة في اختيار هويته

ولكن أن لا يلم الشمل.

إذا وقفت في وسط الساحة الخضراء و تحدثت

بمكبرات الصوت وقلت "السودان دولة عربية"

سوف أجد نفسي في هجوم لفظي شرس و العكس صحيح إذا قلت السودان دولة أفريقية.

ملاحظة:

وجودنا في قائمة جامعة الدول العربية ليس شرطًا أننا دولة عربية كما أننا عضو في الاتحاد الإفريقي، وأننا في قائمة جامعة الدول الإفريقية.

ولكن إذا قلت بنفس وتيرة الصوت بأن السودان دولة سودانوية سوف أجد نقدٍ طفيفًا وهذا لا يعني بأني خارج إطار النقد ولكن قد خففت على نفسي وطأة النقد الهادم.

لا نلوم التعايشي على متاجرته بالرقيق من أبناء السودان الأجلاء ولا نلوم المهدي على محاربة بني جلدته بالإثنية والقبيلة، بل نلوم أنفسنا لأننا نسير على نفس النهج الذي رسم لنا ونحن ما زلنا نهرول في اتجاهه.

علينا أن نحرك السكون لتغير تلك الإيديولوجيات الموروثة.

نجد أن الإشكالية الأساسية في ذواتنا، نحن من نعرب أنفسنا أو أن نلتصق في هويات غير هويتنا التي لا عيب فيها بل فخرًا و عظمة.

ولا ننسى على مر العصور، الحكومات منذ
الإستقلال كانت تستعرب المجتمع حيث شهدنا
تمرد الجنوب بسبب الهوية المفروضة،
مثل هذه الظواهر صنعت في نفوس كثير من
الناس أزمة في الهوية، إذا تعربت بالفرض
عندما تكبر ستكون هناك فجوة في داخلك و هذا
يولد جدل في الهوية ولا تنتهي إلا بعد أن تلج
إلى هويتك الأولى، وإن لم تجد هويتك الأصل
أو لم تبحث عنها فإنك تعيش في سيكولوجيا
القهر و نكران الذات.

❖ تعدد الهويات

السودان دولة غنية بتعدد الجنسيات و الهويات من المنطقي ألا نضع أنفسنا في إطار معين أقصد عدم التمسك بهوية واحدة.

هناك أصناف عدة من السحنات و القبائل، هناك ما يدعى بالزنجي وهناك من ينسب للعروبة وهناك الكوشيين و النوبة، و لكن بسبب ترابط المجتمع ببعضه البعض ظهر نوع من التنوع و لولا هذا التنوع لكانت هناك بعض المفاهيم الضارة قد تفشت في أواسط المجتمع.

الاختلافات في بعض الأحيان تصنع تشوش في التصرفات تأتي على إثرها بعض الفسوق والخروج من ملة القانون والإنسان يقبع على هامش الهوية.

أنني ناشز عن بعض المعايير و معترض على فرض الهوية وأن الإنسان حر في اختيار هويته ولكن دون انحياز و ميول لهويته الأصلية.

❖ تهميش المجتمع

من الطبيعي أن تختلف المجتمعات وهذا الإختلاف فطرة ومحل ثراء فكري و إجتماعي، ولكن حينما يتحول هذا الثراء و تصبح مهمته هي التصفية الفكرية أو الدينية أو السياسية أو الإثنية فإن هذه الهويات يمكن أن تكون مدمرة وهذا ما يحدث الآن في السودان.

يتمحور الإنسان في ثقافته و عادته وتقاليده و مدى احتفائه بذاته، لا يمكن وضعه في دائرة النقد من صاحب ثقافة أخرى، وإنما يجب القبول والمشاركة حتى تتفشى الثقافات ويكون رقيًا بدلًا أن يكون خلافاً.

من الصعب وصف الإنسان بالهامش لكونه هو محور العلاقات البشرية ما أقصده هو حمل قيمة الإنسان مقابل

تهميش قيمته في مقابل قيم اقوى أيا كان مصادرها الدينية أو السياسية أو فكرية أو حتى ثقافية.

لنأخذ بعض من القصص كي نثبت للمجتمع بأن هذا الأزمة لم تكن ينبوعًا يشرب منه بالسهل أو لم يكن مستنقع يرفث به الثيران، إنما نضعها لكم في رحم الواقع كي تبصروا بعين الاعتبار والواقع.

عزيزي القارئ نحيطكم علمًا بأن كل قصة تجدها هنا من وحي خيال الكاتب ولا علاقة لها بالواقع ولكن هناك بعض من الأحداث قد حدثت بالفعل في عين الواقع سوا

كان مع الكاتب أو حدثت مع أقربائه أو أصدقائه أو من عاشره.

الواقع خيال والخيال واقع.

موسم الهجرة إلى الغرب (زالنجي)

❖ مدينة قولد (أم عجاج)

محجوب ود سعيد

أثر آثار الزحف الصحراوي وقلة المياه و شظف الري والخصوبة في محلية قولد وهي إحدى مدن الشمال السودان يحدها من الشمال

مدينة دنقلا ومن الجنوب تحدها مدينة الدبة ومن الغرب تحاصرها الصحراء الممتدة إلى حدود ليبيا و تشاد.

ومن شرقها يقع نهر النيل الذي يمتد مسافة ٢٠،٤ كيلو متر على طول المدينة.

وكان العامل المؤثر في نسبة ضعف الإنتاج الزراعي هو الزحف الصحراوي الذي ضرب ضواحي المدينة.

في الخمسينات من القرن الماضي تسببت حركة زحف كثبان الرمل في انقطاع أجزاء كبيرة من الأرضي الزراعية وذلك بسبب دفن قنوات الري وقد تفاقمت المشكلة أكثر عندما عزف

المزارعون عن الزراعة بسبب تردي نتائج المحاصيل في مواسم الحصاد خاصة.

قرر محجوب السفر و إكتشاف ماهية الوضع السوداني ولا يريد قضاء ما تبقى من عمره في القولد، أبان ذلك كان لمحجوب زعزعة في الهوية أو غموض في هويته من ناحية والدته لنكتشف ذلك فيما بعد.

يقال أن إسم قولد جاء من مسمي نوبي (قولن دب) ويعني القلعة والأرض المرتفعة

وقيل أن الإسم جاء لأنها المنطقة التى ابتعلت فيضانات سيدنا نوح فالبلع في لغة النوبة (قوليد)[2] ومنها جاء إسم (الزير) (قالو) بالعامية السودانية (قله)

المصدر : بوابة السودان

{وقيل الأرض ابلعي ماءك}

❖ آثار قولد:

[2] بوابة السودان

توجد بالقولد كثيرا من المناطق الأثرية بمنطقة الخندق و الزرايب و دنقلا العجوز، والتى بنيى فيها أول مسجد في تاريخ الإسلام في السودان كما توجد مقابر و آثار مسيحية و أهرامات صغيرة و قبب لغير المسلمين وبالقرب منها توجد مقبرة الصحابي "حسن بن عقبة بن نافع" قولد منطقة جميلة و ربما أجمل مناطق في الشمال بنيلها و نخليها و جذورها الرواسي و سواقيها و مراكبها التي تعدي من الشرق إلى الغرب،

و بنخليها الذي يقف في صفٍ واحد مع النيل

يتراقص بطرب نسائم الرياح وهي تهب

وتتغلغل فيها أسراب العصافير عبر أغصانها.

محلية قولد مزيج من القبائل النوبية والعربية،

يمكن أن نقول بأنها منطقة إلتقت بها

الحضارات.

من القبائل التي تقطن قولد الدناقلة والمحس

البديرية والدهشمية والشايقية و الكبابيش و

الهواوير والكواهلة الخ...

محجوب ود سعيد ، والده سعيد من قبيلة الشايقية المشهورة و يعتبر من أقدم القبائل التي نتجت من تمازج العرب مع سكان السودان الأصل؛ معظمهم في نهر النيل و منطقة شندي و المتمة و أبو حمد وفي شمال كردفان و في الشرق و تناثر بعضهم في الغرب، عرفوا قديمًا في قطاع التجارة و الزراعة و الرعي.

والدة محجوب وهي فاطمة تنحدر من قبيلة المحس وهي من القبائل السودانية الكبيرة و معروفة بأنهم إحدى القبائل المكونة للبلاد و يقطنون ديار المحس وغالبًا في ولايات السودان، كالولاية الشمالية، ونهر النيل، ولاية

الجزيرة و الخرطوم، النيل الأبيض و أرجاء من البطانة و سنار و كسلا و البحر الأحمر و القضارف و كردفان وغيرها؛ سكن المحس منذ القرن الخامس عشر جزيرة توتي الكبرى بولاية الخرطوم.

قبيلة المحس هي حصيلة بين تزاوج أو تصاهر العرب و النوبة أصحاب الحضارة الأقدم في التاريخ، وقد كان ملك النوبة يورث إبن الأخت أو إبن البنت فلما تزوج منهم العرب كان أبناءهم ملوك للعرب والنوبة على سواء دون صراع.

والدة محجوب من أم و أب محسي، ولكن تعود سلالتها لترتبط بقبيلة الفور؛

تعرفت والدة جدة محجوب على أحد أبناء دار فور يدعى "الطاهر" و في ذلك الوقت التقت به في العاصمة السودانية بالتحديد مدينة ام درمان ومن هناك أعجب بها الطاهر أبكر وهو من قبيلة الفور المشهورة وهم مجموعة عرقية تقطن في الغرب غالبًا، و يتركزون في منطقة دار فور، يشكلون أكبر مجموعة عرقية؛ يتحدثون لغة الفور التى تنتمى إلى عائلة نيلو الصحراء.

بعد إعجاب الطاهر بأم جدة محجوب "أمنة" تقرب منها ثم أقام معها علاقة وبعد علاقة دامت نصف عام على وجه التحديد، قررا بحذو خطوة للأمام، كانا يعلمان بأن هذا القرار سيكون صعبًا

على الاسرتين وهذا الإختلاف طبيعي جدا بين العرقيين، وكانا يعلمان بأن زواجهم من بعض يشكل محل ثراء أجيال و أجيال، و سيكون هناك مصاهرة على مدى الحياة بين القبيلتين، دمج الدم النوبي و دم عربي حتى خلق المحس وإذا تمازج المحس مع الفور سيكون حصيلة من التنوع الجيني، وهذا بحد ذاته جانب إيجابي أن تترسخ قيم المحافظة على التنوع البيولوجي.

في بادئ الأمر قوبلت العلاقة بالرفض من كلا الطرفين حيث إنهم كانوا لا يحبذون زواج فردٍ من خارج إطار قبيلته وهذا التقليد عانَى منه

كثيرا من الشباب آنذاك، وهذا مفهوم الجهوية موجود إلى يومنا هذا !!

ولكن الطاهر و آمنة اصرا على العلاقة ولم تنتهى إلا بالزواج المبارك مؤمنين بأن هذه الخطوة المقدسة ترسخ كثيرًا من المعاني والدلالات على أنهم قادرين على تخطي كل الصعاب.

بعد عناد كبير من الاسرتين أخيرًا قوبل أمرهم بالموافقة التامة دون أي إكراه من الجانبين.

لم ينجبنا الطاهر و آمنة إلا بنت واحدة لأن مشيئة الله كانت وفاة الطاهر في حادث سير بين طريق الفاشر و النهود حين عودته من زالنجى

مسقط رأسه؛ عم الحزن والأسى على آمنة عقب تلقيها خبر وفاة زوجها ثم بعدها قررت الرحيل إلى قولد برفقة ابنتها "كلتوم" التى كانت جميلة منذ صغرها كوالدتها؛

مع مرور الزمن كبرت كلتوم حتى بلغت سن الزواج، فزوجتها والدتها قبل وفاتها، برجل محسي يدعي "عبدالله أحمد" ومنها أنجبت فاطمة والدة محجوب، ثم تزوج ود سعيد بفاطمة و أنجب منها محجوب.

محجوب ود سعيد سئم من قولد، ققز إلى ذهنه فجاة فكرة السفر والبحث عن عائلة جده الطاهر؛ رغم أن جدته كلتوم سردت له بعض

من المعلومات مثل أنه كان يقطن في زالنجى، إلا أنه يريد أن يعلم عن جده و عائلته كامل التفاصيل وهذه كانت وصية آمنة لابنتها كلتوم قبل أن يتوفاها الله و بدورها نقلت كلتوم قرص الوصية إلى إبنتها فاطمة و فاطمة نقلت الوصية إلى إبنها محجوب و ذلك قبل وفاتها بمدة طويلة حين كانت طريحة الفراش ذكرت إبنها بالوصية وقد مضى عامٍ قبل ذلك الحدث.

نجد أن أمام محجوب مهمة صعبة جدًا وعليه أن ينجز المهمة بنجاح و إمتياز.

بعد وفاة ود سعيد عوض الله والد محجوب بعد أربعة أشهر أعد محجوب العدة لخوض رحلته

في البحث عن الذات الهوية، كما أسمها هو

(رحلة البحث عن الذات)

كان دائما ما يجد نفسه في محل نقص، هذا

النقص من جهة والدته و كان موضع نقد في

جوف المجتمع، حيث أنه يعرف أسلاف والده

إلى جدة الذي قيل يرتبط نسبة بعم الرسول صلى

الله عليه وسلم عباس رضى الله عنه، وقال

البعض أن هذه خرافة ومن الأساطير.

❖ إمام شندي

أستغل محجوب غروب الشمس وبدأ يبحث عن مكان يقيم به ليلته في شندي وبعد بحث لم يدم دقائق وجده إمام مسجد بعد صلاة العشاء كان جالسًا بين أحضان بساطه ما إن لبث حتى دعاة الإمام بالمبيت عنده ، منزله يقبع جنوب المسجد، كان محجوب يريد أن يضجع في فناء المسجد "الحوش" ولكن أصر الإمام على مرافقته.

في حوش منزل الإمام الجليل (آدم عمر) جلس محجوب في السرير الذي يتوسط الحوش، الذي كان به مساحة كبيرة، في وسطها سريران مفروشان والمسافة لا تتجاوز بينهم متر ونص وبين السريران وضعت طاولة صغيرة في متنها إناء نيكلي وفي جوف الإناء ماءٍ وفوق الماء وضع كوبًا مصغر من الإناء النيكلي؛ السماء ملبدة بالنجوم والقمر المنير الذي ينعكس داخل الإناء وكأن الكون كله في قاع الإناء.

جلس آدم عمر في السرير المقابل بابتسامة ناصعة وبطريقة دبلوماسية، استفسر عن ما

يدور في ذهنه من الأسئلة وكان محجوب يجيب عن كل التساؤلات بكل اصغاء وتحكم.

بعد أن سمع آدم عن كل ما يتعلق بمحجوب قال له محفزًا و مشجعًا:

أنت إنسان قوي يا بني، لا تستسلم حتى تصل إلى مبتغاك.

محجوب – شكرا لك عمي سوف أصل بكل تأكيد.

في وسط المجمتع السوداني، الصغير لا ينادي الكبير منه بأسمه، أقصد عند ما يجد المرء من يكبره سنًا يناديه بحسب ما ابتغى من العمر إذا

كان رجل بمثابة والده ينادا به (ابي ، عمي ، خال ، جد) على حسب الفئات العمرية إذا كان في مقامة الجد ينادى بجدي وإلى هذا المنوال.

حتى النساء يلقبن كثيرا بى (امي ، خالتي ، أختي..) يعتقدون بأن نداء الكبار بأسمائهم ليس بأمر لائق بل يعتبر عيبًا أو عدم الاحترام.

قال آدم:

إذا لم تكتشف هويتك فأنت إنسان ناقص.

ثم صمت برهة و أضاف:

الهوية هي جواز سفرك في هذا الكون

ثم قال:

من أنت إذا لم تعرف أصلك.

ثم قال وهو يعدل جلسته:

السودان ليس حكرًا لهوية معينة أو فئة عرقية من الناس، السودان لكل السودانيين نختلف في الثقافات ولكن هويتنا واحدة وهي السودانوية

ثم أضاف بعد أن صمت برهة وهو يشاهد النجم الساقط "الشهاب" على الضفة الغربية : حتى النجوم لديها هوية.

ثم أضاف بعد أن رشف من كوب الشاي:

الإنسان يخلق ليكتشف أسطورة هويته.

ثم قال وهو يضع كوب الشاي في الطاولة:

الهوية دين.

عم الصمت أرجاء المكان قال آدم وهو يتثاءب من النعاس:

الانس أطروحة الهوية، كل شكل أخذ حقه سوا كان عنوةً أو لطفًا، لذا أنت لم تحصل على حقك.

لم يفقه محجوب ما قال آدم من كلمات ولو فهم بعضهم فقط إلا إنه كان مشوشًا الذهن حتى غلب عليه النعاس ونام بعدما سمع شخير آدم وهو مضجع.

❖ قبائل السودان:

الجنس الحامي الذي تنتمي إليه بعض

المجموعات التي تقطن هذه الأماكن ما هي :

سوى نتاج تمازج و اختلاط بين المجموعات

السامية و المجموعات الزنجية الذي تم منذ أقدم

العصور و نجمت عنه قبائل القرن الأفريقي و البجا و النوبة القدماء.

الجنس الحامي الذي يمثل الزنوج تؤول المصادر إلى أنه يعود إلى حام بن نوح عليه السلام.

والجنس السامي الذي يمثل العرب والذين يعودون إلى سام بن نوح عليه السلام.

قبائل السودان هي خليط من قبائل الزنوج و البجا والقبائل العربية و النوبية.

- قبائل الزنوج :

هم سكان السودان الأصليين وقبائلهم كثيرة جدا ولكل قبيلة لغة يتحدثون بها فيما بينهم أو كما يسمى البعض لهجة أو "رطانة" لنذكر بعضٍ منهم:

قبائل الشلك: وهم يقطنون غرب النيل الأبيض وعند بحيرة نو يعيشون في قرى متسلسلة.

الدينكا: وهم يقطنون شرق النيل الأبيض، سود الوجوه وهم من أجمل الزنوج شكلًا وجمالٍ.

النوير: يقطنون بين بحر السبت وبحر الغزال في منطقة السدود و يسكنون الجزر.

و أيضًا قبائل الباري والماري و اللانوكا و المارك و الجانقي و البنقو و القولو و الديور و النيام نيام و غيرهم.

قبائل البجا: تسكن الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ومن قبائلهم العبابد والبشارية ..

قبائل الهدندوة: يسكنون الصحراء بين خور بركة و عطبرة و طريق بربر و سواكن وبعض ضواحي كسلا و حلفا.

قبائل النوبة: يقطنون ما بين الشلال الأول و الشلال الرابع ومن القبائل النوبية:

الدناقلة وهم يسكون ما بين الشلال الثالث و الرابع.

وقبائل الأشراف و المحس وهم يسكنون ما بين الشلال الثالث و جبل دوشا.

- القبائل العربية:

هي القبائل التى هاجرت إلى السودان بعد إنتشار الإسلام و استمرت في هجراته حتى ضمها محمد علي باشا السودان إلى الحكم المصري،

وقد تمازجت هذه القبائل مع المواطنين الأصل "قبائل الزنوج" وقتذاك؛ و نتج عن هذا التمازج القبائل الحالية وهم:

الشايقية و المناصير و الرباطاب ، المريقاب ، الجعليين ، السوراب ، العابدلاب ، الجموعية ، الحسنات ، الرفاعية ، و كنانة ، المسلمية ، الكواهلة ، الحلاوية ، العراكيون ، بنو حسين ، ثم الفونج وهم من أسسو مملكة سنار القديمة مع العابدلاب و يدعون النسب إلى بنى أمية.

اما قبائل البادية وهم:

الشكرية و البطاحين الضبانية و الحمران وغيرها.

قبائل العرب في كردفان:

الجوامعة ، البديرية ، التمام ، الفديات وهذه القبائل الأربعة حضرُ و بقية السكان بادية وهم الابالة – أي يملكون الإبل و يرعونها و يربونها، اما البقارة – أي يملكون البقر.

ومن قبائل الابالة: الكبابيش ، دار حامد ، بنو جرار ، حمر وغيرها.

ومن أشهر قبائل البقارة: الحوازمة ، الهبانية ، الخ...

ومن أشهر قبائل دار فور من الابالة: الزيادية ، الماهرية ، المعالية ، الرزيقات وغيرها.

ومن قبائل البقارة في دار فور:

المسيرية ، التعايشة ، بنو هلبة ، عرب البشير ، بنو فضل ، بنو حسين وغيرها.

ترجع أصول هذا القبائل إلى قبائل عربية في آسيا وهي:

بنو أمية و بنو عباس و جهنية و زبير بن عوام وغيرها.

وهذا القبائل تصاهرت مع قبائل الزنوج الذين هم أصل السودان و ذكرت من قبل قبائل الزنوج من البجا والدينكا وغيرها.

وهذا التصاهر نتج عنه هذه القبائل ال ٥٧٠ قبيلة الحالية؛ الواقع الأرجح يقول هكذا..

أيضًا الحلبة:

وهم معروفون في مصر "بالغجر" وفي الشام "بالنَّور" وهم قوم رحل ، يعملون رجالهم بالحدادة و ترويض القردة و رعى الأغنام، و يعملن نساؤهم بالوشم

والدجل و ختان البنات، ومنهم الشحاذون والصوص الخاطفون.

❖ ومن قبائل السودان غير ما ذكرناه:

الذين دخلوا السودان قبل فتح محمد علي باشا ومنهم اتخذو مقامًا والمكادة وهم: الأحباش النصارى و الجبرتة – وهم أحباش مسلمون.

و التكارنة: وهم مهاجرو السودان الغربي من الفلاتة و البرنو و باجرمي. .

- ❖ ومن القبائل الزنجية في دار فور وتضم أكبر و أعرق القبائل وهي:

الفور و المساليت و الزغاوة و البرتي و المراريت و الداجو التنجر و الهوسا و التامة وغيرها كثيرين.

من الواضح أن القبائل العربية الوافدة قد اختلطت بالمصاهرة مع السكان الأصليين في مناطق السودان المختلفة و نجم عن ذلك ما نعرفه بالسودان الحديث أو ما تطلق عليه {السودانوية}.

والقبائل العربية الوافدة وما أقامته من صلات رحم بقبائل البحا و الهدندوة وغيرها في شرق السودان، و قبائل النوبة في شمال السودان و وسطه و قبائل كردفانية و دارفورية في غرب السودان و القبائل النيلية و الاستوائية في الجنوب.

عند منطقة الخوي لم تدم الراحة طويلًا حتى دوى السائق بوق عربته بصوت عالٍ إشارة إلى انتهاء مدة الإستراحة التي لم تستغرق ربعة ساعة،

لم يتبقى لمحجوب كثيرًا حتى يصل إلى مبتغاه، وصل إلى النهود عندما أستقرت الشمس على صفحة المغيب ، كانت الشمس ترسل خيوط الشفق حتى تعلن عن حلول الظلام قريبًا.

ربما البعض يعتقد بأن محجوب شخص مهوس لأنه نفض غبار الاستعراب و خرج باحثًا عن

ذاته وعن ملة هويته، لربما يعود السبب في طفولته التي عانَى منها و من البيئة المحيطة به كان لا يتحدث كثيرًا ، دائمًا أعزل ولا حتى مع اصدقاءه من حوله، ولكن الآن أصبح جائعًا للكلام لديه شهوة للكلام، حتى أصبح يتحدث مع كل شخص يقابله أثناء رحلته مر بمدن و قرى كثيرة بل أصبح يتحدث مع الأشجار و الحصى و الحيوانات و الطيور مع الموتى عند حافة القبور، أصبح مهوسًا يتحدث مع نفسه ومع قلبه ومع عقله، يدندن بأغاني يحفظها، يلقي ندوات عندما يجد نفرٍ من الجموع.

عندما مر بالرهد وهي مدينة تقع في ولاية شمال كردفان على ارتفاع ٤٩٠ مترٍ فوق سطح البحر.

عندما توقفت عربتهم أمام حي الشاطئ شمال، وجد محجوب عشرات من الشخوص يمكثون في برشٍ يتداولون فيما بينهم أحاديث، متناثرين كأسراب الطيور كل إثنين أو ثلاثة أشخاص في حلقة واحدة.

ألقى عليهم تحية السلام ، ردوا جميعهم في آن واحد (عليكَ السلام)

علموا بأنه ضيفًا مسافرٍ ويبدو عليه عناء السفر و تعبه، أسرع بعضهم احضروا له طعامٍ وماء.

ثم بدأ محجوب يتحدث والكل يستمع بنشوة ولذة، سرد لهم كل قصته، انارة وجوهم البهجة و تعجبوا لقوة هذا الرجل و فصاحته، محجوب فصيح وحكيم حفظ القرآن عن ظهر القلب في خلاوة في أم عجاج "إحدى قرى قولد ومسقط رأسه"، بعدها درس علوم الفقه، لديه حجة و منطق و فطنة بإستطاعته إقناع نسمات من البشر بأنه على حق.

أستغل عطل العربة و حدثهم عن الدين والدنيا ثم حدثهم عن الهوية وكيف أن أيديولوجية هذا المجتمع مغلقة كالسلاحف عندما تخاف تهرب الى قوقعتها ولا تواجه الخطر "الحقيقة".

قال لهم:

من ليس لديه هوية كالنباتات الهوائية لا جذور

ولا أوراق ولا أنسجة.

ثم قال لهم:

إنسان بلا هوية كافر.

ثم قال:

هلموا أبحثوا عن ذواتكم

ثم قال:

أنتم مستعربون موهومون

ثم أضاف بنفس الصيغة :

أنتم هامش العروبة.

قام وصافح الجميع، ومن الناس قد أعتبر محجوب المهدي المنتظر ومنهم من يسامر أخاه بقوله " إنه بنفس حكمة نبي الله حضر" ومنهم من تأثر من قوله ومنهم من شاطره بلكنة العلم والعالِم و والفيلسوف ورب العلم.

ثم ودع القوم و مضى على متن العربة ، ترك تلك الجماعة ينثرون بعض من مياه الرهد من خلف العربة (رش الماء بعد رحيل شخص عادة سودانية قديمة، يظنون بأن نثر الماء في الطريق الذي سلك به المسافر يعتبر به بركة وهو في عون الله و حفظه)

شابًا في العقد الثالث من عمره قد هرول نحو العربة التي سلكت الطريق الوعر، هرول الغلام يلحق بهذا الرجل المقدس أهو نبي ام ملاك.

بكى كثيرًا عندما أمسك به مجموعة من الشباب في سنه، بأمرًا من والده قال وهو يبكى بحرقة إنه وجد أسطورته، إنه أسطورة الكون وملاك في شكل بشري؛ قيده والده و رمى به في خلوة لحفظ القرآن الكريم.

ما هذا المجمتع الرجعي، ولكننا أغبياء جدا

عقولنا صغيرة لدرجة نصدق أتفه التفاهات

نعيش في وهم التصديق، يعربوننا ثم يزرعون فينا البدعات، إسلام ليس بالإسلام الذي نعرفه، نحمل اوزار في لا شيء، شيوخ كاذبون يستغلون الناس بإسم الدين حتى يحققون رغباتهم و مصالحهم الشخصية.

ذلك الغلام الأحمق إذا قلت له أنني نبي لصدقني دون اكتراس للأسئلة، يمكنني فبركة دماغه و التلاعب به ، وهكذا تستخدم فئة من الناس لنشر سمومهم في المجتمع، عقول شابة يفترض بها أن تكون من الفقهاء !.

أكثر شيء أخاف عليه هو انحياز المجمتع و الانجراف نحو الهاوية و مستنقعات الجهل والجهوية، لا سيكولوجيًا ولا أيديولوجيًا ، حتى خرجنا عن ملة الفطرة.

إنها ليلة الخميس حوالي الساعة التاسعة مساءًا ، كان محجوب ينام قرب أحد المسافرين معه، يمعن النظر إلى النجوم التى شكلت أشكالًا عدة، وإلى السماء التي زينت بالكواكب والنجوم، لقد أحس حقًا بلذة الحياة، يحس كأنه ريشة أو طائر يلعب في مهب الريح يذهب به حيثما شاء

ويشاء، في كل يوم يتعرف على وجه جديد كل وجه به ألف قصة وقصة ، أناس مختلفين في اللون والثقافة في البيولوجية في العلم والجهل مع إختلاف الألسنة ، رجالًا ونساءٍ أطفال وفتيات شيب وشباب أحرار و طامسي الهويات.

❖ طمس الهوية

علينا النظر في عمق الواقع ، لماذا هناك جهات تريد إقصاء بعض من العرقيات عن الحياة الإجتماعية والسياسية و تؤجج نار الفتن **!؟**

مثل هذه الأفعال مرفوضة بحق الإنسانية والدين ، ما العلة في الإختلاف **!؟**

لماذا لا نعيش علىّ هذا التنوع و نصنع نسيجًا من اختلافاتنا، فليكن ينبوعًا يشرب منه أجيالًا ثم أجيالًا ثم أجيالٍ، لا يقبل اي إنسان على وجه الأرض تهميش هويته وتغيرها مهما كان المبرر.

المشكلة الكبرى في السودان هو فرض الهوية

في بعض الأقاليم و فرض ثقافات و تجريم

معتقدات وعادات تلك المجتمع،

السودان يعاني من إنقطاع الحاضر بالماضي

(الانبتات) هكذا تسمى في علم الإجتماع.

وهذه المعاناة نتيجة لفقدان الهوية والبحث الدائم

عنها مع وجود مستعربين و تدخل حدودي

أضف إلى ذلك طيبة أهل السودان بشكل ساذَج

و سرعة ولوفهم و إدمانهم للثقافات العابرة

للحدود، و الوافدين وهذا يؤدي إلى تهميش

الثقافة المحلية الأصلية وينهار المجتمع الأخلاقي

و يزهو بالعنف الإجتماعي، أصبحت ثمة

مجتمعية لفترة زمنية امتدت لأكثر من نصف

قرن.

زالنجى

زالنجى :

زالنجى بفتح الزاي وكسر اللام والجيم وسكون النون تتركب الكلمة من مقطعين اثنين احداهما (زالن) بفتح الزاي وكسر اللام وسكون النون، والثاني (جى) بكسر الجيم ومد الياء حركتين على الاقل ، واصل كلمة زالنجى (زعلان جاء) فبحذف العين من الزعلان وإحلال الألف محلها وحذف الألف الثاني من زعلان تبقت (زالن) وبتحريف كلمة جاء الى (جى) بكسر الجيم اصبحت (زالنجى) .

فاختلطت كلمة زالنجى بالدارجية العربية بلغة الفور مثلا يقولون (او نا زالن جى) للمظلوم

لكى يجد حقه عند القاضي وكانت زالنجى بها
محاكم تقصدها الخصوم من أرياف شتى حول
زالنجى فكانوا يأتون اليها زعلانيين غاضبين
من الظلم فكلما أقدم خصمًا يقولون زعلان جى
وعلى هذا سميت بها وهى مدينة بغرب
السودان تحيطها وادى أريبو وأزوم غربًا وشرقًا
وشمالًا وجنوبًا كما تحيطها جبال وأقرب سلسلة
جبلية قربها تقع بجهة الجنوب كما تحفها أشجار
خضراء و جنائن مخضرة وتتخلل وسط المدينة
احياء محافظين وحصاحيصا وإشلاك الشرطة
واستاد وخمس دقائق والجزائر والسوق والثورة
والوادي والفلوجة وام زحيفة وحميدية وكنجوميا

وغيرها وبها المستشفى الملكي وجامعة ومدارس ثانوية وأساسية ومساجد وأسواق ومؤسسات حكومية أخرى وميادين رياضية واندية.

❖ الطاهر أكبر عبدالمنعم :

بحث محجوب عن هذا الإسم مدة وجيزة حتى تحصل على معلومات كافية من أحد البقالين الذي دل محجوب على منزل طاهر أكبر.

الطاهر فوراوي أمٍ عن أب ولكن يرتبط نسبة بقبيلة الشلك بعلاقة مصاهرة جد والد الطاهر

وهو [ميكائيل من قبيلة الشلك والدة ميكائيل من قبيلة النوير] ميكائيل فر من حرب الجنوب نحو الغرب بعد أن فرقته الحرب عن أسرته التى نزح منها إلى إحدى دول الجوار.

استوطن ميكائيل في زالنجى، كان عاريًا من العمل و المأوى، إلى أن وجد "موسي بلال" وهو فوراوي الأصل و زوجته من عرب بنو الحسين، قرر موسي بلال تبني ميكائيل للعمل معه في الحقول، وفي الجدب في بناء منازل من القش والطين التى كانت مهنته آنذاك.

ميكائيل ذات التاسع والعشرون ربيعًا لم يتردد قط في الموافقه على طلب موسى وقد أعتبرها فرصة سانحة لا تتكرر كمن وقع له اليانصيب. بعد أن عمل ميكائيل بنزاهة لمدة خمسة أعوام، وبدور موسى لم يظلم ميكائيل، و كان يوفي حقه يوم بيوم أو على حسب ما يشاء ميكائيل. وفي الزراعة يتقاسمون الأرباح بالثلث حيث ميكائيل يأخذ ثلت وموسى ثلث والثلث الباقي يذهب للخسائر، لم يجد موسى الذي بلغ من العمر عتيا طريقة يكافئ بها ميكائيل لقد سد كل سبل رد الجميل، ميكائيل ما إن دخل حياة موسى حتى

تغير كل شيء لقد كانت تلك الفترة مفعمة بالسعادة.

بعد أن فكر مليا، قرر موسى تزويج إبنته سلمى لميكائيل الذي فتح له أبواب الدنيا على مصرعيها وخلد له ذكرى في كل ربوع زالنجى حتى أصبح الكل يعرفه بعد أن كان لاجئ وغريب يعج به الهواء أينما أقبل.

سلمى ذات الخمس والعشرين خريفًا التى رفضت طيلة الأربعة أعوام ما يقارب عشرة شباب متقدمين لزواجها كانت ترفض دون تحديد سببًا واحد ، و بدور والدها كان رؤوفًا على إبنته المدللة التي تصفها والدتها "نورة" زوجه

موسى بأنها مدللة أبيها وكما تقال بالدارجية

المحلية {أم أبوها}.

تصرفات سلمى في رفضها للعرسان يوحي

بأنها تحب أحدهم ولكن لم يأن الأوان لبزغ إسمه

ولكن والدها موسى قد فهم رغبة إبنته أو

بالأحرى إنها تحب ميكائيل.

بعد صلاة الجمعة في ظل أحد الأشجار العملاقة

وفي وسط زالنجى أعلن الإمام أحمد فضل

رسيمًا زواج ميكائيل من سلمى وقد ملأت

السعادة ربوع الحي وكل أركان زالنجى.

بعد موت مولودهم الرابع وبعد فقد الأمل وأخيرًا

امطر بيت ميكائيل فرحًا وفي ليالي الشتاء

القارصة و بوسط فرحة غامرة ولدت حواء ميكائيل.

توفى ميكائيل بعد أن بلغت إبنته السابع عشر ربيعًا وبعد ثلاثة أعوام على وجه التحديد تزوجت حواء ميكائيل برجل من قبيلة الفور أبكر عبدالمنعم وهو فوراوي أم عن أب ولكن جد والدة تنحدر من قبيلة الحمر.

دعونا لا نتعمق في هذا الجانب.

تزوج أكبر بحواء وأنجب منها الطاهر وحليمة و عبدالعزيز.

الطاهر هو جد محجوب.

حليمة وافتها المنية في خمسة عشر ربيعًا ، غرقًا في إحدى وديان زالنجى، أما عبد العزيز تزوج من فتاة مسالتيه حينها، وأنجب منها إبنان وبنت:

محمد عبدالعزيز أبكر

محمود عبدالعزيز أبكر

مهاد عبدالعزيز أبكر.

محمد تزوج من فوراوية وأنجب منها صالح ثم توفى هو و زوجته أثر إنهيار منزلهم في فصل الخريف، لغزارة الأمطار وقتذاك؛

محمود تزوج من قبيلة زغاوة وأنجب إبن وبنت وهما صلاح و مريم.

اما مهاد تزوجت من رجل كاهلي من قبيلة الكواهلة من كردفان والرجل ينحدر قبيلة الحلفاوين من جهة والدته، والآن يقطنون في حلفا الجديدة في منقطة تسمى "المصنع"

صالح تزوج من فتاة أصولها عربية من شندي والآن يقيم معها وقد كبر في السن المشيب وله ست أبناء وبنات.

أما صلاح توفى وترك زوجته وثلاثة أبناء.

مريم شقيقة صلاح تزوجت من رجل من الجزيرة والرجل من قبيلة عربية كبيرة في وسط

السودان والآن تقطن هناك وقد أخذها العمر عتية.

❖ هكذا تكلم المجنون

جلس محجوب بعد صلاة الجمعة ، ألهمه حديث الشيخ، اعتلى الشيخ المنبر كان ذلك في حي التور وهي من أعرق أحياء زالنجى والذي يبعد مسافة ٢٤ دقيقة سيرًا من حي الوادي مسقط رأس آل أبكر؛ تحدث الشيخ عن الإحسان

والمعاملة الحسنة وعن كرم الشماليين حتى ابتهج وجه محجوب وكان في عينه وميضًا لامعًا ثم شعر بقشعريرة وكأنه في القطب الشمالي يتلفح بنسمات الجليد، حدثهم الشيخ عن طيبة أهل الشرق وعن نقاء قلوب الجنوبيين وعن الوسط الذي اجتمعت فيه كل هذا الصفات ثم وضح لهم بأن الوسط يحمل كل أطياف المجتمع من الشماليين الجنوبيين والشرقيين والغربيين لذا الوسط هو مرآة تعكس الثقافة السودانية.

أغلب سكان الوسط هم الوافدين من أرجاء السودان الأربعة و استوطنوا هناك حاملين

ثقافات مختلفة ليصبح مزيج من الثقافات و هذا المزيج أشبه بالعناصر الكيميائية عندما تجتمع المحاليل في أنبوبة في المعمل سوف تتج لنا هذه العناصر عنصرًا جديد ضروري جدا وهذا المزيج من الثقافات صنعت به الثقافة السودانية الحالية.

طبعا لم يكن الوسط فارغا من الكتل البشرية أقصد لم يكن نائياً، قبل أن تتوافد إليه مجموعات من الشمال والجنوب والشرق والغرب إلى الوسط ليتخذوه سنترًا أو عاصمة للثفاقات والتقاليد و الأترثة؛ من حيث تبادل

البضائع ومن حيث تمازج ألسنتهم واكتشاف

اختلافاتهم؛

بل كانت هناك قبائل تقطن من قديم الزمان مثل

الجعليين ، الجموعية ، العبدلاب ، البطاحيين ،

الشكرية ، الرفاعة وغيرهم.

عندما انتهى الشيخ من الخطبة و ترجل من

المنبر،

صرخ بأعلى صوته

كذب !

كذب !

كذب !

كان هناك رجل يقف وسط الجموع، يلبس

جلباب أبيض حد ركبته مع بنطلون طويل

بيضاء،

أصبح المصلون تتنافر وتفر، والبعض يتهامس

"هذا المجنون مزعج"

"لقد جن جنونه"

محجوب قطب جبينه متعجبًا وهو يشاهد

المجنون يعرقل درب المصلين ويقطع طريقهم

ويصرخ في وجوهم:

"تصالحوا مع أنفسكم أولًا" !

"كلكم كاذبون لا أحد يحب الآخر، الحقد يغلي

في قلوبكم كالبراكين التي على وشك الإنفجار"

ثم قال وعينه في عين محجوب الذي لم يحرك ساكناً و متكئأ على عمود الساس وسط المسجد:

– إذا لم نتوحد لم نصنع وطنًا يحترم كل فئة ولا يميز فئة عن فئة.

أقترب المجنون من محجوب وجلس بقربه، كان رجل نظيفًا ذو شعر كث متشابك مع بعضه بطريقة توحي بأنه يشبه "بوب مارلي" هكذا يسمى؛ حليق اللحية إلا من بعض الشعيرات المتناثرة وسط ذقنه، حلق شاربه بطريقة هتلرية

نوع ما. أضراسه نظيفة؛ تفوح منها

رائحة الكتب والحبر،

أيعقل! أهذا مجنون!؟

تكلم المجنون وهو يمرر أنامله عبر

شعره الخشن والناعم قليلًا:

– أنا رجلًا متدين وعميق ، صادق على

سنتي و منهجي، أنا تصالحت مع ديني و

دنياي أما البشر فتبًا لهم كلهم كاذبون.

قال محجوب دون مقدمات وهو ينظر

إلى عيناه الحادتان العميقتين نحو بؤرته:

– من أنت!؟

صمت المجنون برهة وكأنه يتذكر شيئًا وبعد دقيقة صمت قال وهو يتفحص محجوب.

– كنت مثلك يا رجل ، ارحل و أجوب أرجاء السودان ، كنت مرهف لنشر الثقافات أخذ من هنا و أضعه هناك ومن هناك إلى هنالك، كنت أقرأ التاريخ وباحثًا بكل شفافية، كنت ألقي الندوات والمحاضرات في الشوارع وعند الأرصفة في المطاعم و الفنادق في القصور وبيوت المساكين كنت أغور في الحديث حتى صنفوني مجنون. وبالفعل

تجاهلوا حديثي بداعي أنني مجنون وكما

ترى الآن، "قالوا عن الحقيقة كلام

مجنون"

ضحك المجنون بهسترية و قهقهة في

نهاية ضحكته ثم قال :

– العقلاء مجانين.

ثم قال وهو ينظر صفار محمود :

أنت شمالي ؟

ثم أضاف – صدق الشيخ المنافق

قال بحكمة:

الشماليين تفيض منهم عناقيد الكرم ولكن

منهم الحاسدين و الشرقيين تفيض منهم

نضرة الطيبة ولكن منهم الحاسدين

الجنوبيين تفيض منهم بياض القلوب

ولكن منهم الحاسدين، الغربيين تفيض

منهم رائحة العطاء و الأدب والاحترام

ولكن منهم الحاسدين،

قال وهو يعدل جلسته:

كلكم حاسدون ولا تريدون الخير لبعضكم

تتفلون بكل صغير وكبير، تبا لكم.

مضت ربع ساعة و محجوب ينصت إلى المجنون بأذان صاغية، وقف المجنون بطوله كرجل عارم العلم، ثم سار بضعة خطوات كجندي يؤدي التحية لقائد الميدان ثم ألتف وقال بصوت شبه عالٍ:

《سوف نكون مهمشين من كلا الجانبين》 !!

ثم ترنح عبر الباب ثم رحل.

أصبح تفكير محجوب صوب المجنون، أصبح التفكير يداعبه، من هذا المجنون!؟ كيف وصل لما هو عليه الآن؟ لماذا

الناس ضجرت من حديثه رغم أنه

صادق و فقيه!؟

قرر محجوب زيارة منزل المجنون الذي

يقع أطراف الحي بعد أن وصفه له أحدهم

وقال وهو يضحك "سوف تصبح مجنون

مثله" لم يرد محجوب على الواصف بل

شكره ثم مضى قدمًا.

منزله عبارة عن كومة من القش كما

تسمى بالغة المحلية (كرنك) أيّ كوخ.

مثبت على أربعة أعمدة خشبية وضع

أعلى سقف الكرنك كثيرا من الاغراض

المستغنى عنها من قبل أصحابها، مثل ملابس قديمة صوف الغنم وبر وأكياس علب قديمة عظام كلاب.

منزله عبارة عن جدار محطم أثر هشاشة الطين أو ضعف بنيته كان حائطا واحداً فقط سليم من أربعة حوائط، و الحائط السليم يقع في الجهة الجنوبية متلاصقا مع منزل أحدهم حتى اصطفت المنازل في صف منتظم.

دخل محجوب إحدى الزقاقات الضيقة حتى ظهر له بيت المجنون ، وعندما أقترب منه كان يجلس في برشٍ و خمن

بأنه يقرأ شيءً، وعندما وقف فوق رأسه

أتضح له إنه يقرأ كتاب {شفرة دافنشي}

جلس محجوب بطلب من المجنون ثم

أحضر له ماءً نقيًا فشربه.

محجوب يعلم بأن هذا الشخص ليس

بمجنون ولا يوجد مجنون قارئ وإنما

يوجد قارئ مجنون.

❖ بلسان المجنون دعوني أسرد لكم قصته.

ياسر محمد عبدالله دينق

ولد ياسر عام 1976 في مدينة خشم الغربة؛ بعد ما هرب والده مع والدته من كسلا إلى خشم الغربة ، استقروا هناك وبعد بلوغه الربيع الخامس مات والده غرقًا في النهر ، في ذلك العام فاض النهر حتى كاد أن يكسر السد؛

والده محمد عبدالله كان صيادًا بارعًا حتى أنه كان يقتات من مهنة الصيد، اما والدته كانت تعمل أعمال صغيرة مثل تمشيط شعر النسوة في الحي حتى أصبحت شهرتها تتلألأ في سماء الحي والأحياء المجاورة حتى أصبحت تأتيها الفتيات اللاتي تردن الزواج.

والدة ياسر هي "سامية اوهاج عمر" من قبيلة البجا و نسبها امتزج مع الهدندوة إو ارتبط مع النوبة الكوشيين والبدوييت في السكنات.

عبدالله دينق ينحدر من قبيلة الدينكا والدته من قبيلة الخمرة من كادوقلي إحدى مدن كردفان.

تزوج عبدالله من رفاعية في منطقة رفاعة في الجزيرة، وقتذاك عبدالله تلقى تعليمه من جامعة الخرطوم ومن هناك تعرف على "نسيبة علي" التى كانت رفاعية أم عن أب، ولكن جده والد والدته يربطه نسب مع قبيلة البطاحين.

بعد زواجهم بسنة ونصف أنجبا عبدالله و نسيبة أول إبن لهما و أسمه محمد.

ترعرع محمد مع والدته إلى أن بلغ السابع عشر صيفًا حتى وافت المنيه والدته ثم لحق بها والده بعد عام من رحيل والدته؛ سافر محمد بعد أن بلغ عمره ربع قرن إلا بضعة أشهر، اتجه صوب كسلا ليتعرف على سامية اوهاج في إحدى ضواحي كسلا ، طلب محمد يد سامية بالزواج بها ولكن قوبل طلبه بالرفض القاطع، وأعربت أسرة سامية: بأن طلبه يخالف تقاليد وعادات قبيلتهم.

بعد سد كل السبل قرر محمد و سامية التخطيط للهروب من كسلا ولم يقررا بعد إلى أين يتجها ولكن أرادو الفرار من هذا الوهم القبلي الذي اشبع المجتمع

بالتخريف؛ في قانون الحب لا يوجد ما يسمى بالكيان أو القبلية.

هرب محمد برفقة سامية وعند خروجهما من المدينة كان هناك ثلاث خيارات، أما أن يذهبوا عبر طريق حلفا الجديدة أو أن يجتازوا التفتيش الذي تناثرت فيه كتل من القوات نظامية و أغلقوا الطريق الغربي الرئيسي الذي يؤدي إلى العاصمة الخرطوم وكثير من المدن المتناثرة عبر الطريق إلى العاصمة.

اختاروا الخيار الثالث ألا وهو شق الطريق الجنوبي الوعر الذي ينتهى بهم في مدينة خشم الغربة، ركضوا بكل ما أُتيا من قوة، مع علمهم التام بأن أسرة سامية

يتبعون أثرهم لذلك أسرعوا، أمسك محمد يد محبوبته وعبر الطريق الوعر حلقوا في سماوات الحب، و كأن كلاهما أنبت له ريش من بين جانبيه أو ملائكة السماء تحملهم بأجنحتها المقدسة ، طاروا و حلقوا في الأفق و كأنهم أطفال عصافير تعلموا الطيران لتوهم و خرجوا من أوكارهم.

طرقا باب أول منزل قبع في طريقهم وصادف بأنه منزل إمام المسجد في الحي أقعدهم الإمام في ضيافته و قصا له كل تفاصيل مغامراتهم و من حسن الصدف أن الإمام إنسان فقيه خلوق وفيلسوف. و بعد ان مكثا خمس أيام في منزل الإمام "مطر عبدالعزيز" قرر تزوجهم،

وما إن بدأ في عقد القران حتى ظهرت قافلة من قومٍ تأتي من نفس الطريق الوعر الذي آتيا منه.

كان عشرات الأشخاص يمتطون الخيول، و بريق الحسام تتلألأ مع شموس الإنتقام؛ وبعد برهة من الدقائق غزو الحي و منزل الإمام مطر،

أخرج والد سامية سيفه و بحركة بهلوانية لولو اوهاج سيفه ثم قطع رأسه نصفين !.

هنا صاح محجوب : كيف ذلك! كيف يموت والدك وأنت لم تلد بعد !؟

أشعل المجنون لفافة التبغ الخامسة له ثم قال وهو يدخن التبغ بلذة ونشوة و ينفث الدخان الذي يتصاعد في أعالي الكوخ ويتحرك كالغيوم المتحركة.

قال:

جدي اوهاج لم يقطع رأس والدي، وإنما قطع رأس الكبش الذي كان يمسكه والدي وتطايرت الدماء على وجه و هلل و كبر كل الحضور وتم مباركة الزواج.

- وبعدها !؟

قالها محجوب بكل تشويق وهو ينتظر من المجنون إكمال ما تبقى من القصة !

- بعدها ولد المجنون الذي تراه أمامك الآن.

قال محجوب وهو يهش بعض التراب كي يطفئ سجارة المجنون التي رماها بعيدًا عنه وعن الكوخ:

– لماذا أتيت إلى هنا!؟

صمت برهة ثم قال:

– زينة الحياة

– ماذا تقصد !؟

– أتيت مثلك، الهوية زينة الحياة

– أتيت تبحث عن مالٍ و بنون !؟

قال المجنون: ترعرت في الغربة ثم ذهبنا
إلى كسلا هناك تعرفت على أسرة والدتي
وعندما يفعت و بلغت السادسة عشر
ربيعًا قررت البحث عن أسرة والدي،
وبالفعل غادرت والدتي ثم توجهت نحو
"مالكال"

هناك إلتقيت بأبناء عمومتي ولأنني كنت
مختلف عنهم وجدت نفسي مهمشًا وفي
محل سخرية من أهالي تلك البلدة لذلك
قررت أن اتجه صوب دارفور حيث
الوجوه الجديدة بعد أن رُفِضْت الزواج
من فتاة نويرية حسناء جميلة تكاليف

مهرها أشبه بتمويل شركة ذات أسهم

ضحمة، قلت لهم "تبا ليس هكذا تورد

الإبل" قبل أن أسلك طريقي نحو الغرب

توجهت نحو الشمال عندما سمعت

إكتشاف مناطق لتعدين الذهب و التنقيب.

بالفعل بعد أيام كنت أتجول في شوارع

وادي حلفا حيث بلد الحضارات القديمة،

ولكن المصيبة التي لم أتوقعها أن

الحكومة استحوذت على جميع المناطق و

فرضت ضرائب ضخمة على العمال و

أبى كثيرا منهم و اضربوا عن العمل ،

منهم من قَبِل العمل ولو بثمن زهيد ضئيلٌ

تافهٌ نسبة لسوء ظروفهم المادية، أما أنا وبعض المتمردين حاولنا أنا نصنع عملية شغب ولكن قمعتنا الأجهزة الأمنية و أبرحونا ضربًا ولكني خرجت منهم متنكرًا على إني أعمل مع فريق عمل الجيولوجي.

عدت إلى عطبرة ومعي شخصان أحدهم يوسف هارون من كردفان والأخر محمود محمد طه من سنار.

يوسف هارون معرفتي معه رديئة و ركيكة لأنه شخص منغلق ضئيل الوَنس عكس محمود الذي يثرثر كثيرًا والذي

يقول دومًا يتبع النظام الجمهوري القديم
الذي ناضل أستاذه محمود محمد طه كما
يقول بأنه (رسول السودان) ويقول بأن
الجمهوريين إنحرفوا عن مسارهم بعد
استشهاد معلمهم وأنهم أصبحوا مثل
الصوفيين حيث الهبالة والغباء والتخريف
والبدعة.

قصة محمود محمد طه غريبة نوع ما أو
مضحكة بعض الشيء:

جده طه عندما أنجب له أول إبن ألا وهو
(محمد) قد أسماه محمدٍ وكان جده
جمهوري وقيل إنه كان يحضر ندوات و

محاضرات الجمهوريين بقيادة أستاذهم محمود محمد طه في ام درمان في الستينات ومن هناك تعلق طه بفكرة محمود محمد طه، لذلك اسما إبنه بمحمد ثم وصى إبنه محمد الذي هو أيضا تأثر بفكرة محمود محمد طه الوصية هي: "يا بني سمي أول إبن لك بأسم محمود" و بهذا اكتمل مشروع طه بصنع إسم ثلاثي يحمل إسم و أب و جد مؤسس الفكر الجمهوريين "محمود محمد طه" و تنبأ بأن حفيده سوف يغير مفاهيم و سبل تطوير المجتمع فكريًا.

كان يظن طه بأنه سوف توافيه المنية قبل
أن يرى حفيده أو محمود محمد طه ينبعث
من جديد من رحم الوطن، و في ذلك
اليوم علت الزغاريد في حي العمال
إحدى اعرق احياء مدينة سنار. بشر
محمد طه بإبن و فورًا أسماه محمود
لتكتمل تركيبة البنية الجمهورية لأسرة
طه الجد.

والغريب في الأمر أم محمود و زوجة
محمد إسمها نفس إسم والدة الأستاذ
محمود محمد طه (فاطمة بت محمود).

اما يوسف هارون وبعد بحث طويل في ملامحه و طريقة تفكيره استنتجت بأنه متصوف لكنه يدس منا كل تعاليمه و أفكاره.

و بدور محمود قد أعلن فكرته و مبادئه التي يسير عليها، كان بحوزته عدة كتب لمحمود محمد طه ومنها كما أذكر { كتاب الثورة الثقافية ، كتاب الرسالة الثانية من الإسلام ، أسس دستور السودان ، ...}

أما أنا كنت لا أهتم بشيء غير الذلة التي تلقيتها عند عشيرتي في مالكال من ما نزع من نفسي وهم الهوية.

كنت لا أحب الخوض بنقاشات مع محمود الذي يحب السياسية ولكنني لا أهتم بالسياسة لأنني أكره السياسة والساسة عن بكرة أبيها لذلك أتجنب الاحتكاك السياسي مع محمود و نتناقش في مواضيع فلسفية و فكرية كونية.

افترقنا عند الخرطوم أنا اتجهت نحو الغرب و محمود قال بأنه يود أن يذهب إلى سنار بعدها يعود ادراجه إلى

الخرطوم كي يكمل مشروع بحثه عن

أستاذه "محمود محمد طه" وهو يدرس

في جامعة النيلين.

ترجاني بأن أصحابه إلى سنار لكني

رفضت بشدة معتذرًا بأني مرغم بزيارة

دارفور لأهداف لم اكشفها له؛

ودعني بحفاوة وقلت له إذا في العمر

بقية سوف نلتقى.

اما عن يوسف فلم أعرف عنه شيء واخر ما رأيته

كانت بطاقته عندما وقعت عيني على إسم والدته "مهاد

عبدالعزيز أبكر" !.

عندما أستقرت الشمس على صفق المغيب لتعلن إنتهاء النهار وحلول الليل، و القمر كاد أن يبزغ ليرسل خيوط وميضه سالكًا ومشقًا الشفق الأحمر؛ ألح المجنون على محجوب بأن يعود إلى منزله واعداً إيها بأن يسرد له غدًا مزيد من الهوية وعن الرحلة التى لم تنتهى مادام لم يتعرف البشر ببعضهم؛ ثم أوضح له أن يعود إليه بعد صلاة العصر ، لأن هذا الفترة من الزمن يكون متفرغا نفسيًا و جسديًا و ذهنيًا !.

ماذا يظن نفسه يعمل هذا المجنون الأحمق الفيلسوف!؟

يعمل تاجر فحم !

يصنع كمائن "مفردها كمين" : وهي عبارة عن مجموعة من الحطب، ترص بشكل عمودي أو هرمي في حزمة؛ يرتب الحطب ويتخذ شكلًا هندسي لائق، ثم بعدها يسكب عليها بَعْر البقر (زبالة) ثم بعدها بعض من الأعشاب "القش" ثم تشعل النار عليه، و بعدها تحاط بالتراب بكل أرجائها؛ غالبًا تتراوح الفترة التي ينضج فيها الكمين من أسبوع إلى أسبوعان حتى يصبح فحمًا يباع ويشترى في الأسواق.

المجنون : دعوني أناديه بالمجنون، لأنه حقًا مجنون بأفكاره التي تخدش إيديولوجيات المجتمع وتكشف إستراتيجياتهم ولا تفصح عن اخطاءهم.

لذلك الكل أتفق عليه بى المجنون متناسين إسمه ياسر ومع ذلك الكل يتعامل معه يشتروا الفحم منه ، و بعض الأهالي الحي يستعينون به لصنع الكمائن لهم.

- هل العامل السياسي له دور في تهميش الهوية السودانية ؟

في رأي الشخصي العامل والحراك السياسي له
دور فعال في تهميش الهوية السودانية،
السودانيين وبعد الثورة المهدية وقتل غرودن
باشا أثناء تحرير الخرطوم قد إستعادو هيبتهم و
مكانتهم من بين شعوب العالم بأنهم أحرار و
يستطيعون حكم أنفسهم بأنفسهم دون تدخل
خارجي.

الثورة أصبحت تقطف ثمارها الناضجة وهنا
شعروا السودانيين بانتصار عظيم جدا، ولكن هذا
الإنتصار صار يضعف شيئًا فشيئا بعد وفاة
المهدي و أختلف السودانيون في من أحق

بالخلافة ، كان الأشراف أقرباء المهدي بزعامة الخليفة شريف يرون بأن شريف أحق بالخلافة من عبدالله التعايشي، ولكن في الأخير بايعوا الخليفة عبدالله و أعقب عبدالله التعايشي المهدي ثم تلى مقتله في أم دبيكرات.

نجد بأن سبب انهيار الدولة المهدية هو خلافات بين الأمراء (آل المهدي ، آل التعايشي) آنذاك ، وهذه هي السياسة إلى يومنا هذا نتبعها نحن كسودانيين، الصراعات الداخلية بين أبناء الأسرة الحاكمة وبين أعضاء الحزب الواحد حتى بين الأخوان الأشقاء، هل في دواخلنا غريزة السلطة!؟

هذه النقطة سببًا في انهيار الدولة السودانية المهدية، و سببًا في نجاح حملة إستعادة السودان تحت حكم الاستعماري و نجح اللورد كتشنر في ذلك.

على مدار الحكومات بين سقوط الحكم التركي وحتى قيام الدولة المهدية ثم تلاها سقوط الدولة المهدية ثم قيام الحكم الإنجليزي و حقبة ما بعد الإستقلال كان المواطنين السودانيين وما زالوا يعانون من تهميش الهوية بسبب الصراعات السياسية و التي نتج عنها صراعات قبلية حتى تحول الأمر إلى حروب أهلية : مثل حرب الجنوب التي أصبحت أطول حرب في أفريقيا،

هنا كانت المعاناة التى تتجلى في الهوية وكيف للمواطن السوداني أن يجد ذاته (هويته) ؟ في ظل هذا الصراع الذي بدأ كصراع سياسي ثم تحول إلى صراع ديني ثم تحول إلى صراع عرقي و إثني ومن هذا المنظور نجد أن السياسة لها دور كبير في تهميش الهوية السودانية، الحقيقة السودانيين لم يتقلبوا الأيديولوجية السياسية، لأن السياسية السودانية تدخلت في الشؤون الدينية وفي العرقيات حتى في الجغرافيا السكانية (الترحيلات القصرية)، وخير دليل الصراعات الحالية من الإقصاءات العرقية من جميع أدوار المجتمع بشكل عام.

- لقاء آخر مع المجنون

قال المجنون لمحجوب - وهو يرشف من كوب الشاي :

" إذا كنت تبحث عن الهوية عليك الجلوس مع نفسك أولًا ، أسأل نفسك هل أنت راضٍ عن هويتك"؟

محجوب – وإذا كنت راضيًا عنها ، هل هذا الرضا في محل إنتماءٍ لذاتي!؟

المجنون – بلا شك لا ! ، الرضا يكمن في الأصل وما من كائن بدون أصل.

محجوب – كيف تؤول النفس إلى أصلها و أصبحت الآن في شتات ما بين هذا وذاك.

المجنون – عليك أن تسبر غورك و تبحث عن ذاتك بذاتك !.

محجوب – على الأرجح في كل الشعوب الجنس البشري يعاني من نقص و يختلف هذا النقص من شعبٍ لأخر وأظن بأن نقص الهوية قد أصاب الشعب السوداني.

المجنون – لا شيء يدعى نقصًا ، الإنسان مكتمل مدام ذهنة يعمل على حسب إرادته، وليس روبوتًا ليديره غيره؛ وهنا يكمن جدل الهوية بالنسبة لنا،

فإننا كالروبوتات يديروننا كما شاءوا؛ برمجوا في أذهاننا أننا ننتمي لى كذا و كذا ، و قيل الصديق عدو والعدو صديق فلا نعلم أين الأعداء وأين الأصدقاء وكلهم يتظاهرون بأنهم يريدون مصلحتك ولكن من وراءك يعملون أخبث الأعمال، التى تمزقك إلى أشلاءُ.

محجوب – في هذا الحالة من نحن الآن؟ هل نحن روبوتات لها هوية وتعمل على حسب ما أمرت به؟ أم نحن آناس يتحكم بها غيرها ليتسلقوا إلى مصالحهم.

المجنون - مفهوم الهوية الذي يتحكم بنا كالروبوتات، وفي نفس الوقت يقولون لك "أنت منا و تنتمنى إلينا" أذهب و حارب تلك الفصيلة حتى تخضع في عصمتك ويكون روبوت لك.

محجوب – و بدورنا ننفذ أوامرهم و نشن هجومٍ على تلك الفصيلة حتى ترضخ لنا، و بذلك ترتاح ضمائرنا و نشعر بأننا في كمال تام ونحن نستعبد تلك الفصيلة وفي نفس الوقت نقول لهم أنتم مننا، ثم بنفس السيناريو نفتنهم مع فصيلة آخرى وهكذا إلى أن ترضخ كل الشعوب و

تؤمن بأنها في نفس الدرجات وهم راضيين عن ذلك مادام هناك درجة أدنى منهم.

المجنون – نعم ! وهكذا تتكون فئات المجتمع وكل فئة تعتز بنفسها على الآخر و تزل الفئة الأدنى منه،

وهنا تهمش الهوية حتى يصبح الكل ينسب نفسه إلى هوية غير هويته و يمكن أن تكون هذه الهوية في بلدًا أخر و حتى في قارة أخرى.

محجوب – هل تحدثنا للعربية يوحي بأننا شعوب عربية أو دولة عربية !؟

المجنون – الإنسان قبل اللغة؛ حين أكتشف الإنسان إنسانويتة لم يكن هناك لغة؛

ما يميزالإنسان هو الإثنية العرقية "الجينية" بغض النظر عن جغرافية المنطقة التى وُلد منها و ترعرع بها، مثال (ياسر عرفات وُلد في القاهرة ثم ترعرع هناك قبل أن يأسس حركته "حركة الفتح" وقبل أن يصبح رئيسًا لمنظمة التحرير الفلسطينية وبعد سنوات ليتولى حكم فلسطين) لم ينكر انتمائه لفلسطين وهو من أسرة فلسطينية نازحة؛

مهما سعى الإنسان إلى تبديل الجينات الوراثية لقومًا ما فإنه لا يستطيع ذلك حتى مع نفسه!.

محجوب – بماذا تفسر وضع السودان ! القبائل المهاجرة اختلطت مع قبائل الأصل وكيف ننسب و نفرز هذا الزيجات؟ ماذا يحدث عند اختلاط هويتين؟

المجنون – عندنا اختلاط هويتين أنتجت لنا هوية جديدة !.

محجوب – هل هناك شعوب إختلطت مع بعضها وصنعت شعبًا واحدة موحداً!؟

المجنون – نعم ، مثلاً :

الشعب الأرميني هو نتاج تشكل من اختلاط شعب اوراراتو مع الحثيين ومع القبائل الهندواوربية و على قراره تشكلت الهوية السريانية مع امتزاج الاكاديين مع الفينيقيين.

محجوب – إذنٍ ماذا عن اللغة؟ رغم تعدد اللغات المحلية إلا أن لغة المهاجرين (اللغة العربية) هي من استحوذ على زمام الأمور في السودان ! ما تفسيرك لذلك ؟

المجنون – الإسلام؛ هو المأثر الأكبر في إنتشار اللغة العربية في جميع ربوع السودان، لأن الإسلام كان جديدًا ، الشعوب المحلية (الأصل) حينما أسلمت واجهت صعوبة اللغة وكيفية حفظ القرآن الكريم وكيفية تعليم علوم الفقه الإسلامي؛ لذلك رضخوا لتعليم اللغة العربية أكثر فأكثر ليس لأجل التداول والتواصل فقط مع (المهاجرين) بل من أجل تعليم هذا الديانة الجديدة "الإسلام"،

كان عليهم تفسير القرآن بلغاتهم المحلية و حفظها بسهولة كما في {نيجيريا الآن حيث أغلب القبائل النيجيرية تحفظ القرآن بلغتهم الأم مثل قبيلة الهوسا وغيرها} ولكن كانت الترجمة أصعب بكثير وهم لا

يفقهون العربية والقبائل (المهاجرة) أيضا لا تفقه لغتهم لترجمتها وهكذا سادت اللغة العربية في السودان، و أفريقيا.

هكذا طوى محجوب رحلته للبحث عن هويته ليلتقي مع المجنون الذي اسدل له الستار وكشف عن تفاصيل عميقة عن الهوية بكل شفافية ودون ميول لإثنية معينة ، موضحًا بأن الهوية السائدة الآن هي الهوية السودانوية، وهذا الهوية ناتجة عن تزواج القبائل العربية (المهاجرة) مع القبائل الزنجية (الأصل) و ليصوغ و يتغلغل و ليستنتج القبائل الحالية "570" قبيلة لتمثل الإنسان

السوداني الاثنروبولوجيا ذات ثقافات متعددة و متنوعة ولكن هذا هو سر عميق في ترابط المجتمعات السودانية ببعضها البعض كما أنها تشكل الهوية السودانية الموحدة (إذا أتفق عليها كل أطياف المجتمع).

- أزمة السودان "الأصولية" وإنكار الأخر :

من أبرز أسباب أي صراع إدعاء الأصولية وعدم الأصولية بين المجتمعات داخل رقعة جغرافية واحدة، باصطحاب التفاوت التاريخي بالسكن في المنطقة، حيث تدار ألفاظ الأصولية داخل المجتمعات، وعبرها يظهر تأكيد المواطنة ونفيها، مما يجعل المستهدفين من هذا النعت أن يبرزوا عن كافة أشكال القوة لإثبات المواطنة والمحافظة على الحيز الذي يملكه عن طريق السلطة سواء كان بصورة جسمانية أو صورة ذهنية، وفرض الذات بصورة أحادية إقصائية دون "عدم" التقبل والإعتراف بمواطنة الأخر، مما ينشئ صراعات في أزمنة مختلفة وأماكن متعددة ، و يهدف كل من الآخرين

إثبات مواطنة ذاته للآخر الذي هو غير مواطن في نظره.

هذه النعرات التلاسنية (الشتائم) والظاهرة على مستوى المجتمعات ، نتائجها السلبية أكثر من النتائج الإيجابية.

فليست هنالك إيجابيات أفضل من حق المواطنة والإعتراف بوجود الأخر وهذا الكم من التعدد الذي تتألق به المنطقة، إضافة لتقبل الأخر الذي عبره يترسخ السلام الإجتماعي في وسط المجتمعات والإستقرار السياسي والإقتصادي على مؤسسات الدولة.

فالإنغلاق في الملكية سواء كان على مستوى الديانة أو الرقعة الجغرافية أو ،،، أي شيء فما هو إلا أزمة معقدة التركيب تتفاقم كلما إزداد الحراك الثقافي داخل المجتمعات.

إذا انتقلنا إلى نقطة أخرى فمثلاً الإفريقية ليست محصورة في أواسط الزنوج فهنالك أطراف أخرى غير الزنجية مواطنة على القارة الأفريقية لفترات بعيدة ، وتعتز بأفريقيتها وتشعر بالإنتماء، فظاهرة دمج الإسلام مع الثقافة العربية أو الإفريقية مع الزنجية، ماهي إلي أزمة ونتائجها وخيمة ومصطحبة كمية من السلبيات التي تتأزم منها مجتمعات ما بعد الإستعمار وبعض

المجتمعات المتقدمة التي التحقت بركب التنوير والتطور

.

هذه إدعاءات فادحة يرتكبها البشر يومًا بعد يوم، وتدفع الثمن باهظًا نسبة للتمادي الذي تمارسه في إبقاء هذه الظاهرة على فترات متراكمة.

علينا تحرير إطارنا الأبستمولوجي من هذه الذاتية الغير واعية التي تقحمنا في صراعات من غير أي إستفادة ، فلذلك ضرورة الوعي بالإنتماء

البسيط والتقبل والمساواة بالإنتماءات الأخرى بغض النظر عن المفارقات الزمنية.

- الغابة والصحراء

الغابة والصحراء.. جماليات الثقافة السودانية

عبدالمنعم عجب الفيا

بواسطة عبدالمنعم عجب الفيا أدب ونقد العدد

551

الغابة والصحراء.. جماليات الثقافة السودانية

الغابة والصحراء ليستا جمعية أو حزبا أو رابطة. وإنما هما نفر من المبدعين التقت أفكارهم حول رمزية هذين العنصرين ودلالتهما على الهوية السودانية.

الذاكرة التراثية للإنسان السوداني تلتقي عندها الثقافة العربية الإسلامية بالثقافات اليونانية والنوبية والمسيحية

قادت جمعية اللواء الأبيض الثورة ضد الإنجليز في 1924

أعاد المجذوب إحياء أفكار حمزة الملك وإدخال مظاهر الحياة السودانية في أشعاره

سألت إيزابيلا سيمور, مصطفى سعيد, بطل رواية (موسم الهجرة إلى الشمال), ما جنسك? هل أنت إفريقي أم آسيوي? فأجابها أنا مثل عطيل, عربي إفريقي. فنظرت إلى وجهه وقالت: نعم أنفك مثل أنوف العرب في الصور, ولكن شعرك ليس فاحمًا مثل شعر العرب.

والسؤال ذاته الذي واجهه مصطفى سعيد روائيًا في لندن واجهه واقعيًا الشاعران المبدعان محمد المكي إبراهيم والنور عثمان أبكر في ألمانيا في رحلتهما إليها في الستينيات, حيث عبر النور عن حيرة الأوربي في تصنيفه بقوله (إنه يرفض هويتي الإفريقية حين أفكر, ويرفض هويتي العربية حين أكون). عبارة مشرقة ولاشك تتلخص في أسلوب فلسفي رشيق ازدواجية الهوية الثقافية والاثنية للإنسان السوداني, أما محمد المكي إبراهيم, فقد جادت قريحته شعرًا لتوصيف الواقع بقوله في قصيدته الرائعة (بعض

الرحيق أنا والبرتقالة أنت) والتي تعتبر من عيون الشعر العربي الحديث..

تنبهت الطلائع المثقفة من السودانيين باكرًا إلى الخصوصية الثقافية والاثنية للذات السودانية. وقد برز الوعي بهذه الخصوصية أكثر حدّة في الخمسينيات والستينيات مع المد الثوري لحركات التحرر الوطني ودعوات القومية العربية والاتجاهات الزنجية في إفريقيا وأمريكا اللاتينية. ففطن نفر من هؤلاء المثقفين إلى أن السودان يمتاز بخصوصية فريدة لا تتوافر في غيره من

دول المنطقة, فهو يجمع بين الانتماء العربي والإفريقي معاً في آن واحد. فتفتق وعيهم عن صبغة يصفون بها هذه الحالة الفريدة. حيث إن معظمهم كانوا شعراء, فقد هداهم حسّهم الشعري إلى صيغة شعرية ذات دلالة رمزية عميقة وهي صيغة (الغابة والصحراء). الغابة إشارة إلى العنصر الإفريقي, والصحراء إشارة إلى العنصر العربي. وذلك للدلالة على ذلك التمازج الثقافي والاثني.

مقتبس.

- الهوية السودانية

والحقيقة أن جذور الوعي بالتوصيف (الأفروعربي) للهوية السودانية ترجع إلى عشرينيات القرن الماضي حين تكونت جمعية اللواء الأبيض التي قادت ثورة 1924م, ضد الإنجليز وإلى دعوة رائد التجديد حمزة الملك

طمبل في كتابه (الأدب السوداني وما يجب أن يكون عليه) الذي صدر سنة 1928م حيث ناشد شعراء مدرسة الأحياء الشعري السوداني من أمثال محمد سعيد العباسي عدم الاكتفاء بتقليد الشعراء العرب القدين , والالتفات إلى البيئة السودانية المحلية وتصويرها في أشعارهم.

وتأسيًا بأفكار حمزة الملك واصلت جماعة مجلة (الفجر) في الثلاثينيات, ومن أبرزهم معاوية نور وعرفات محمد عبدالله ومحمد أحمد المحجوب رئيس الوزراء الأسبق الدعوة إلى أدب قومي سوداني يعبر عن الذات السودانية ببعديها العربي والإفريقي. في هذا السياق كتب المحجوب بمجلة

الفجر الصادرة في 1935/6/16م يقول (نحن إن نادينا بقيام الأدب القومي للطبيعة المحلية, فإنما ندعو إلى خلق شعب بكيانه يعبّر عن مرئياته من سماء زرقاء أو ملبدة بالغيوم, ومن غابات وصحراوات قاحلة ومروج خضراء ومن إيمان بالكجور والسحر إلى إيمان بالله وحده لا شريك له).

- وجدان إفريقيا

وكان المفكر والأديب الفذ جمال محمد أحمد يعمل في صمت العلماء بعيدًا عن أي نزعات

شوفينية في التعريف بالأدب والثقافة الإفريقية, وفي كشف العلاقات التاريخية والاثنية بين العرب والأفارقة منذ القدم. فكتب (وجدان إفريقيا) وهو كتاب عن الأديان في إفريقيا وكيفية تعايش الإسلام والمسيحية مع الديانات والمعتقدات الإفريقية المحلية و(سالي فو حمو) وهو في الأدب الشعبي والحكايات والأحاجي الإفريقية. وكتب (عرب وأفارقة) و(في المسرحية الإفريقية) و(مطالعات في الشئون الإفريقية) الذي صدر عن دار الهلال بمصر سنة 1969م, وترجم عن بازل ديفيدسون (إفريقيا

تحت أضواء جديدة) وغيرها من المؤلفات والترجمات.

وكان لموقف جمال محمد أحمد المتوازن من الأصول العربية والإفريقية للثقافة السودانية التأثير في جيل كامل هو جيل الستينيات الذي ينظر إلى جمال نظرة الأستاذ المعلم. فعضوية جمال في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لم تمنعه من رد الاعتبار للثقافة الإفريقية والتعريف بها. وبتأثير من جمال ألف صديقه الأديب والقاص علي المك (نماذج من الأدب الزنجي الأمريكي) وترجم مع صلاح أحمد إبراهيم كتاب (الأرض

الآثمة) لباتريك فان رنزبيرج. كما أصدر محمد عبدالحي كتاب (أقنعة القبيلة) في الشعر الإفريقي الحديث.

وعلى الرغم من بداهة التوصيف الذي تطرحه صيغة (الغابة والصحراء), وعلى الرغم من أن القول بأن السودان بلد عربي إفريقي ثقافيًا وعرقيًا هو من المسلمات التي لا يمكن المجادلة حولها. فإن أصحاب هذا الاتجاه قد تعرضوا لحملات من النقد وصل في بعض الأحيان إلى حد التشويه المتعمّد والاستنتاجات الخاطئة لآرائهم من بعض ذوي النزعات الأيديولوجية

والشوفينية. فالإسلاميون رأوا في صيغة (الغابة والصحراء) دسيسة علمانية للحد من دور الإسلام في المجتمع السوداني. وبعض القوميين العرب رأوا فيها محاولة لتحجيم انتماء السودان للعروبة والإسلام.

أما بعض أهل اليسار فرأوا في نموذج (مملكة سنار) الذي تطرحه (الغابة والصحراء) كمثال للتعايش السلمي والتعددية الثقافية, استمرارًا لتكريس هيمنة الثقافة العربية الإسلامية على الثقافات الأخرى. وربما رأوا فيها ثغرة تعطي المجال لبروز مشروع الدولة الدينية.

لذلك عمد أصحاب هذا الاتجاه إلى إنشاء تجمع مناوئ من المبدعين باسم (آباداماك) في أواخر الستينيات. وقد أخذ هذا التجمع اسمه من أحد آلهة مملكة مروي النوبية القديمة وكأنهم أرادوا بذلك أن يقولوا لأهل (الغابة والصحراء) إذا كنتم ستعودون بنا إلى (سنار) فنحن سنعود بكم إلى أبعد من سنار, إلى مروي أقدم حضارة سودانية إفريقية. إلا أن توجهات ذلك التجمع لم تخرج في مجملها عن مقولات وأطروحات (الغابة والصحراء). فلم يجد أصحاب هذا الاتجاه في النهاية بُداً من الذوبان في التيار (الأفروعربي)

الكاسح الذي تفرضه معطيات الواقع المتشابكة أكثر مما تفعل الشعارات والأيديولوجيات.

وللحقيقة والتاريخ أن شعراء (الغابة والصحراء) ليسوا جماعة تربطهم رابطة أدبية أو يجمع بينهم أي تنظيم أو حزب سياسي, ولم يصدروا حتى بيانا مشتركا يعلنون فيه توجههم, وإنما هم نفر من المبدعين التقت أفكارهم في غير ما اتفاق حول رمزية الغابة والصحراء للدلالة على خصوصية الهوية السودانية.

مقتبس.

- الدوران في نفس الحلقة

المجمتع السوداني ما بين ماضيه و حاضره ومستقبله تائه، يريد إستيراد أمجاد ماضيه العريق وفي نفس الوقت يعيش حاضره بخلطه مع الماضي يفكرون في صنع مستقبلًا باهرًا ولكن بنفس إيديولوجية ماضيهم، ومن هنا يأتي عدم الإعتراف بالواقع السوداني و مكوناته و حضاراته التي سادت فترة من الزمن ثم اندثرت كحضارة كوش و الممالك المسيحية وغيرها..

وهذا أدي إلى انقطاع التسلسل التاريخي الذي تستمد منه الدولة السودانية حاضرها و مستقبلها.

وهذا دوران في نفس الحلقة ، وهنا تأتي دور العادات والتقاليد السلبية بمعني لا تقدم ولا تؤخر، المجمتع السوداني استخدم العادات والتقاليد و اعتمد في حياته عليها بحجة أنها موروثة من أسلافهم حتى لو أن هذه العادات والتقاليد تخالف الشريعة الإسلامية ولكنهم لا يأبهون لذلك، يمارسونها دون تعلل وهذا بحد ذاته يعرقل نمو العقول السودانية التقليدية (بدائية) ، تجد المرء يفتخر بقبيلته افتخارٍ وقارًا

كما فعلوا أقرانه وهو أيضا يفعل ذلك لأنهم فعلوا ذلك.

ومن هنا يأتي عدم الإعتراف ببعض بين القبائل وكل قبيلة تبرز بطولاتها و إنجازاتها التي لم تقدم شيئًا للوطن غير أنهم قالوا : فعلنا كذا وكذا و اغلب أحاديثهم كاذبة لم نجدها في أرض الواقع غير أنها قيل وقال !

وهنا المجتمع عند مفترق الطرق ! كل كيان يريد أن يتسلق للأعلى و ينسب نفسه صاحب أعرق و أقدم و أشجع تاريخ وفي نفس الوقت لا يعترف بأقرانه (باقي الكيانات)

إن دل هذا يدل علي (استثناء ، إقصاء ، تهميش)

- الهوية و - انفصال الجنوب

ظل ملف الهوية السودانية، مسار جدل واسع

في عام 1967 انعقد في الخرطوم – وبمبادرة سودانية خالصة مؤتمر اللاءات الثلاثة الشهير (لا صلح .. لا مفاوضات.. ولا اعتراف بإسرائيل) وتم إيقاف حرب اليمن المستعرة، وانعقد صلح تاريخي بين جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله رحمة واسعة وجمال عبد الناصر- زعيم القوميين العرب؟ وجمعت بمقتضى ذلك الاتفاق 300 مليون دولار سنوياً لإعادة بناء الجيش المصري بعد نكسة حزيران الشهيرة، والتي قادت الرئيس ناصر للاستقالة، وخرج العرب موحدين ومرفوعي الرأس بعد انتكاسة مريعة،، في ذلك الوقت كان العالم

الغربي يعد العدة لأجيال العرب المنكسرين وإرغامهم على الصلح وقبول الشروع الأمريكي (الذي سمي اتفاق كامبديفيد فيما بعد)، ولكن مؤتمر اللاءات الثلاثة أجّل ذلك نحوا من عشرين عامًا؛ استعاد فيها العرب قوتهم وحاربوا بشرف وقوة (أكتوبر 1973) وخرجوا من الحرب أكثر جرأة وعزة ماذا كانت نتيجة ذلك المؤتمر على السودان؟! في أغسطس من نفس العام 1967 عقدت الوكالة اليهودية العالمية اجتماعاً خطيراً في بروكسل وخرج الاجتماع بقرارات خطيرة كان أهمها قراراً بإذلال السودان إلى الأبد وحرمانه من كافة المساعدات الدولية ومشاريع

الاندماج العالمي، وذرع الفتن في ربوعه، مستغلة بذلك التنوع الاثني والديني. والأدهى من ذلك أن المستفيد الأكبر من ذلك المؤتمر الشهير (مؤتمر اللاءات الثلاث) – وهو النظام المصري، رعى وتبنّى الانقلاب على الساسة السودانيين الذين عقدوا ذلك الاجتماع؛ فكانت (ثورة مايو 1967) والتي خططت في القاهرة تحت رعاية النظام الناصري، وكانت ثورة مايو - بقيادة جعفر النميري ثورة قومية عربية ورفعت شعارات "الوحدة الاشتراكية" وهي نفس الشعارات التي كانت ترفعها الثورة المصرية، وكانت (ثورة مايو) هي المعول الأكبر الذي هدم

كل ما بناه السودانيون فوق نحو ما يزيد على المائة العام من الكفاح و النضال فهدموا الديمقراطية، وانقلبوا على كافة الأعراف السودانية، المتمثلة في التسامح والحكمة، فنصبوا حبال المشانق والمجازر والتي راح ضحيتها جمع غفير من أروع مثقفي ومناضلي الحركة الوطنية – والثورية في السودان، وفي ذلك العهد نشأت حرب الجنوب الأخيرة(1983 – 2005) والتي أدّت الآن إلى إنفصال الجنوب، ومن ثم اندلاع حرب دارفور و التي مستمرة إلى الآن.

ثمة معظم الشعوب العربية لا تحترم عروبة السودان المزعومة (المستعربة) بل ولا تعترف

بها، فإن السودان لم يجن ثمار هذا الإنتماء الأحادي الجانب، ولو من باب المجاملة، فظل الشعب السوداني شعباً فقيرًا يكافح من أجل أبسط مقومات الحياة؛ يحتاج لأدوات الإنتاج والمشاريع الكبرى التي تحيل قفاره و وديانه الممتدة على مد البصر إلى واحات ومزارع ومصانع و شركات و مشاريع قومية، فكانت المساعدات العربية هزيلة ومبعثرة يتم الحصول عليها بالاستجداء والمساومات واشتراء المواقف!.

فرض الهوية الأحادية من أهم أسباب انفصال الجنوب، هذا النمط – تأسس على مفهوم فكري

ثقافي الذي قابع و مؤسسة لهوية واحدة، يُحكم بمفهوم الولاء والبراء على قومية دينية و قومية عربية و تمكست بالهوية الإسلامية العربية من ما تأجج تمرد الجنوب مطالبين توازان تنموي إقليمي و إحترام الاثنيات و إختلاف الأديان.

- فترة الممالك الاسلامية في السودان

مملكة الدُّجن أو تفلين الإسلامية في منطقة كسلا

الحالية أول ذكر لها في القرن10 م وحتى

القرن18م

مملكة الخاسة الاسلامية في سواكن ورد ذكرها

فى القرن 14 م - ؟

مملكة دارفور بين القرنين 13 - 19 م

مملكة سنار بين القرنين 16 - 19 م

مملكة تقلي بين القرنين 16 - 19 م

مملكة المسبعات بين القرنين 16 - 17 م

الغزو التركي العثماني:

في شمال وشرق السودان في القرن 16م

باقي أنحاء السودان في القرن 19م

- الثورة المهدية 1881 - 1898 م

- الحكم الثنائي التركي البريطاني 1898 –

.1956

- ما بعد الإستقلال

- خاتمة

الصيغة التقليدية الماضوية لإشكالية الهوية السودانية

البدائية التى ترفض التنوع والتعدد، و التي تلوذ بأسوار

الهوية الأحادية ما هي إلا نخب سياسية (حاكم) تريد أن تستمد القوى من القوميات العربية لتستمر أكثر في السيطرة والاستحواذ على مقاليد الحكم في السودان!

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه - هل هذه النخب فكرت في التنوع الاثني في السودان ؟

المجتمع السوداني فضاء مفتوح على حرية التعدد والتعارض والاختلاف وهذه الاختلافات تصنع نسيجًا من الوعي و الشمولية الوطنية و محاولة تغيب الهوية و تهميش المواطن ما هو إلا صيدًا في ماءً عكر أو محاولة سد أشعة الشمس بى قربال مثقوب، مهما حاولوا منعها

فإن الشمس ترسل خيوط اشعتها عبر الثقوب لتضيء أركان البلاد.

تم بحمد الله.